الفصل التاسع عشر

فيه كتاب الجهر بالقرآن، وما في ذلك من النيات، وتفصيل حكم الجهر، [وبيان حكم](١) الإخفات

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فَضْلُ قراءة السرّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية». وفى لفظ آخر: «الجاهرُ بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرُّ به كالمسرِّ بالصّدقة».

وفى الخبر العام: «يَفْضُلُ عملُ السرِّ على عمل العلانية بسبعين ضعفًا». وفى مثله من العموم: «خير الرزق ما يكفى، وخير الذكر الخفى». وفى الخبر: «لا يجهر بعضُكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعِشاء».

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد: اذهب إلى هذا المصلِّى فمُره أن يخفض من صوته. فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا، وإنّ للرجل فيه نصيبًا، فرفع سعيد صوته فقال: يا أيّها المصلى إن كنتَ تريد الله عزّ وجلّ بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناسَ فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا. قال: فسكت عمر، وخفّف ركعته، فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف، وهو يومئذ أمير المدينة.

وعلى ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل، فيصوّب ذلك لهم، ويسمع إليهم، وقد أمر بالجهر فيما روى عنه: «إذا قام أحدكم من الليل يُصلى فلْيَجْهر بقراءته، فإنّ الملائكة وعُمَّار الدار يستمعون إلى قراءته، ويصلون بصلاته».

---

(١) ساقطة من (ط) وأثبتها من (ك).

ومرَّ رسول الله ﷺ على ثلاثة من أصحابه في الليل مختلفى الأحوال؛ منهم من كان يخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: إن الذى أناجيه هو يسمعنى. ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال: أوقظ الوسنانَ وأزجر الشيطان. ومنهم من كان يقرأ آيًا من هذه السورة ومن هذه السورة، وهو بلال، فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطّيب بالطيب. فقال: كلكم قد أحسن وأصاب.

فنقول، والله أعلم: إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهبًا عن الهِمَّة والمعاملة بذلك؛ لأنّه أقرب إلى السّلامة، وأبعدُ من دخول الآفة. وإنّ الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملة مولاه به؛ لأنه قد قام بسُنّة قراءة الليل، ولأن المخافتَ نفعُه لنفسه والمجاهرَ نفعُه له ولغيره، وخيرُ الناس من ينفع الناس، والنفع بكلام الله عزّ وجلّ أفضلُ المنافع، ولأنه قد أدخل عملاً ثانيًا يرجو به قُربة ثانية على عمله الأول، فكان فى ذلك أفضل.

وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول: أعوذُ بالله السّميع العليمِ من الشّيطان الرجيم، ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون، وليقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ، وسورة الحمد قبلها.

وليقُل عند فَراغِهِ من كلّ سورة: صدق اللهُ، وبلَّغ رسولُ الله، اللّهم انفعنا به، وبارك لنا فيه، الحمد لله رب العالمين، أستغفر اللهَ الحيَّ القيوم.

ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى عنه فقد عمل بالقرآن إلى خاتمته، لأنّه مقسط على جملة العبد وجوارحه.

وفى الجهر بالقراءة سبعُ نيات:

منها: الترتيلُ الذى أُمر به.

ومنها: تحسين الصوت بالقرآن الذى نُدب إليه فى قوله ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم». وفى قوله: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» أى يحسن به صوته، وهو أحد الوجهين وأحبهما إلى أهل العربية. والوجه الآخر: أى من لم يستغن به،

من الغنة والاكتفاء. وقد يقال: من هذا الوجه يتغانى به.

ومنها: أن يُسمع أذنيه [ونفسه][١]، ويوقظ قلبه؛ ليتدبر الكلام، ويتفهم المعانى، ولا يكون ذلك كلّه إلا فى الجهر.

ومنها: أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته.

ومنها: أن يرجو بجَهْره يقظةَ نائمٍ، فيذكر الله عزّ وجلّ، فيكون هو سبب إحيائه.

ومنها: أن يراه بطَّالٌ غافلٌ، فينشط للقيام، ويشتاق إلى الخدمة، فيكون معاونًا له على البرّ والتقوى.

ومنها: أن يكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر، ففى ذلك كثرة عمله.

فإذا كان العبد معتقدًا لهذه النيات، طالبًا لها، ومتقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، عالمًا بنفسه، مصحّحًا لقصده، ناظرًا إلى مولاه الذى استعمله فيما يرضاه، فجهره أفضل، لأنّ له فيه أعمالاً. وإنما يفضل العمل[٢] بكثرة النيات فيه. وارتفع العلماءُ، وفَضُلتْ أعمالُهم بحُسن معرفتهم بنيات العمل، واعتقادهم لها، فقد يكون فى العمل الواحد عشر نيّات، يعلم ذلك العلماء فيعملون بها، فيُعطَوْن عشرة أجور.

وأفضلُ الناسِ فى العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قَصْدًا وأدبًا، وفى بعض التفاسير فى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] قال: قراءة القرآن.

وفى الخبر: «من استمع إلى آيةٍ من كتاب الله عزّ وجلّ كانت له نورًا يوم القيامة». وفى خبر آخر: «كُتب له عشر حسنات».

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ك): «تفضل الأعمال».

والتّالى شريك المستمع فى الأجر؛ لأنّه أكسبه ذلك. وقال بعضهم: للقارئ أجر، وللمستمع أجران. وقال آخر: للمستمع تسعة أجور. وكلاهما صحيح؛ لأنّ كل واحد منهما على قدر إنصاته ونيته. فإذا كان التالى مُكسبًا لغيره هذه الأجور، فإن له بكل أجر أكسبه إياه أجرًا يكتسبه، لقوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، سيما إذا كان عالمًا بالقرآن فقيهًا فيه، فيكون مقراه ووقوفه حجة وعلمًا لسامعه.

وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ كان ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه، فقال: ما حبسك؟ فقالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعتُ صوتًا أحسن منه. فقام ﷺ حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع، فقال: هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله.

واستمع أيضًا ذات ليلة إلى قراءة عبد الله بن مسعود، ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم، فوقفوا طويلاً ثم قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد».

وقال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ. فقال: يا رسول الله أقرأ وعليك أُنزل. فقال: إنى أحبّ أن أسمعه من غيرى»، فكان يقرأ وعينا رسول الله ﷺ تفيضان، وذلك عند قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

واستمع رسولُ الله ﷺ إلى قراءة أبى موسى فقال: «لقد أُوتىَ هذا مزمارًا من مزامير داود. فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع إلىّ لحبَّرته لك تحبيرًا».

وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديه، فيقول له: رتِّل فداك أبى وأمى. وكان حسن الصوت بالقرآن.

وفى الخبر: كان أصحاب رسولِ الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن.

وقد كان عمر يقول لأبي مسعود رضي الله عنهما: ذكِّرنا ربَّنا، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاةَ الصّلاةَ، فيقول: أوَلَسْنَا فى صلاة؟ فكأنه يتأوّل قوله عزّ وجلّ: ﴿ولَذِكْرُ الله أكْبَر﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال بعضُ عبّاد البَصْريين لما وضع بعضُ البَغْداديّين كتابًا فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس، قال: لقد كنتُ أمشى بالليل أسمع أصواتَ المتهجدين كأنها أصوات الميازيب، فكان فى ذلك أُنس وحَثٌّ على الصّلاة والتّلاوة، حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكتَ المتهجّدون، فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وتُرك إلى اليوم.

فإن لم يكن للتّالى نيَّة فى شىء مما ذكرناه، وكان ساهيًا غافلاً عن ذلك، وكان واقفًا مع شىء من الآفات، أو لُمح فى قلبه شخص، أو ساكن ذكرى هوًى، فقد اعتَلَّ، فعليه أن يحتمى بالجهر. فإن جهر على [ذلك][(1)] ثَقُل قلبه وفسد عمله، لاستكنان الداء فيه، وكان إلى النقصان أقرب، ومن الإخلاص أبعد، فعليه حينئذ بالإخفاء[(2)]، فهو دواؤه يعالج به حاله، فإنّه أصلح لقلبه، وأسلم لعمله، وأحمد فى عاقبته.

وقد يكون العبدُ واجدًا لحلاوة الهوى فى الصّلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية، ولطيف الانتقاص. وقد يلتبس ذلك على الضعفاء، ولا يفطن له إلا العلماء. وإنّما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به، ويتلذذون بنصح المعاملة، وصدق الخدمة، المحبّون لله عزّ وجلّ، الخائفون منه.

واعتبارُ فَقْدِ ذلك بأحدِ شيئين: سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال فى مقام الزهد. أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا فى مقام المعرفة. وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

---

(١) ساقطة من (ط).

(٢) فى (ط): «بالإخلاص»، وأثبت ما فى (ك) فهو أصح وأدق.

وحُدِّثتُ عن رجل من أهل الخير قال: كنت أقرأ فى السَّحَر فى غرفة لى شارعة سورةَ طه، فلما ختمتُها غفوت بعدها غفوة، فرأيت شخصًا نزل من السماء بيده صحيفة بيضاء، فنشرها بين يدى، فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة، إلا كلمة واحدة، فإنّى رأيت مكانها محوًا ولم أرَ تحتها شيئًا، فغمَّنى ذلك، فقلت: قد والله قرأت هذه الكلمة ولم أرَ لها ثوابًا، ولا أراها أُثبتت، فقال الشخص: صدقتَ، قد قرأتها وكتبناها لك إلا أنَّا سمعنا مناديًا ينادى: امحوها وأسقطوا ثوابها، فمحوناها. فبكيتُ فى منامى، وقلت: لم فعلتم ذلك؟ قالوا: مرّ رجل فرفعت صوتك بها لأجله، فمحوناها.

وقد روينا أنّ النبى ﷺ سمعَ رجلاً يجهر بقراءته فناداه: «يا فلان أسمع اللهَ ولا تُسمعنى».

واعلم أنّ السُّمعةَ مقرونةٌ بالرياء، ومحكوم لها بحكمه، من فساد العمل ونقصان العامل. وهى مأخوذة من السمع، كأنّ العبدَ يُسْمِعُ بعمله غيرَ الله عزّ وجلّ، ويحب أن يُسمع به مخلوقًا، ليمدحه به، لغلبة هواه وضعف نفسه، فيكون قد أشرك فى عمله غير الله عزّ وجلّ، فيبطل عمله لجهله بالتوحيد، إذ لو علم يقينًا أن لا نافع إلا الله عزّ وجلّ، ولا ضارّ ولا معطى ولا مانع إلا إياه، خلُص له توحيده من الشرك، فخلُص له عمله من الرياء. وكذلك الرياء مأخوذ من رأى العين، فالسمعة هنا بمعناه.

وفى الخبر: «لا يقبل الله عزّ وجلّ من مُسَمِّع ولا مراءٍ». وفى خبر آخر: «مَنْ سَمَّع سمَّع الله به، ومَنْ راءى راءىَ الله به وصغَّره وحقَّره».

فأما من كانت له نية صالحة فى أن يُسمع أخاه كلام الله ليتعظ به ويتدبره، أو ينتفع باستماعه ويتذكر به، فليس داخلاً فى السُّمعة؛ لوجود حُسن النية وصحة القصد، ولفقد اقتران الآفة، لإرادة طمع عاجل من مدح أو غرض دنيا. كما قال أبو موسى لرسول الله ﷺ: «لو علمتُ أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرًا». فلم ينكر عليه لأنّه ذو نية فى الخير وحسن قصد به. وقال للآخر الذى رفع صوته بالآية: «أسمع الله عزّ وجلّ ولا تُسمعنى». فأنكر عليه لما شهد السمعةَ فيه.

وقد روينا أنه ﷺ مرّ برجل يظهر التأوّه والوَجَل، فقال مَن كان معه: يا رسول الله، أتراه مرائيًا؟ فقال: «لا، بل أوّاه منيب».

واعلم أن الأكل والنوم على السّلامة والصّدق أفضلُ فى الحال، وأرفع فى المقام، وأحمد فى المآل، من القيام والصيام على يسيرٍ من التصنّع والتزيّن للخلق. ومعرفةُ هذا والقيامُ به هو موضعُ علْم العلماءِ بالله عزّ وجلّ.

وحُدِّثنا عن الحسن البصرى قال: تَفَقَّدِ الحلاوةَ فى ثلاث؛ فإن وجدتها فأبشر وامض لقصدك، وإن لم تجدها فاعلم أن بابك مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكر، وفى السجود. وزاد غيره: وعند الصدقة، وبالأسحار.

وقراءةُ القرآن فى المصحف أفضلُ من قراءته عن ظهر قلب. يقال: الختمة بسبع ختم؛ لأنّ النظر فى المصحف عبادة(١). وكان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤون فى المصحف، ويستحبون أن لا يخرجوا يومًا إلا نظروا فيه. وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما(٢).

* * *

(١) نقل الزبيدى كلام القوت، ثم ذكر عدّة أحاديث فى فضيلة القراءة من المصحف، وكلها لا تخلو من علّة وضعف، ولكن فى مجموعها تؤيد أهمية النظر فى المصحف والقراءة منه، بالإضافة إلى القراءة بظهر الغيب لمن يحفظه. انظر: الإتحاف ٤/ ٤٩٥.

(٢) راجع ما كتبه الغزالى فى إحيائه، كتاب آداب التلاوة ١/ ٢٧٢ ـ ٢٨٧، إذ نقل ما فى القوت وفصّله ورتّبه وراجع أيضًا ما كتبه الزبيدى فى الإتحاف ٤/ ٤٧٠ وما بعدها.